هذه النصوص جزء من حياتي الجنسية. قبل المفكر، ومعه، ومن بعده. في هذه المنطقة الحساسة من تشابك التجارب من المستحيل أن تفك أي ارتباط. التداخل هنا عضوي. نعم عضوي. هل يمكن لي أن أستبدلها بأية كلمة أخرى؟.

عرفت باكراً ما أريد وقررت أن ألعب لعبتي الخاصة. أدرجت هذا جزءاً من حياتي السرية التي لا يعرفها أحد غيري. لستُ ملزمة بتقديم تقارير عنها لأي إنسان. لا أريد من الآخرين موافقة، ولا صفحاً، ولا مشاركة. حياتي لي وحدي، وأسراري لي وحدي.

في البداية ما كنت أريد لهذا الارتباط أن ينفك. لم أكن أريد أن أزيح الستار عنه. أن أعلنه. لم أجرؤ يوماً حتى على الحديث عنه.

كنت أعده فضيحة.

كنت أتساءل إن كانت الفضيحة في الفعل أم في إعلان الفعل؟. كنتُ أَدهشُ حتى لسؤالي وأقول لنفسي: إن معلميّ القدماء كانوا أكبر من هذا السؤال.

فضيحة قلت؟.

ما الفضيحة؟.

هل كوني امرأة هو الذي يفخخ قراءاتي السرية؟.

أليس اعتباري لها سراً جزءاً من تلك التربية المخصية التي ربيت عليها. لماذا يمكنني أن أتباهى بقراءة الأدب البورنوغرافي الغربي والشرقي وأخفي قراءتي للتيفاشي؟. لماذا أعلن عن ولعي بجورج

باتاي وهنري ميللر والماركيز دو ساد وكازانوفا والكاما سوترا، وأتناسى السيوطي والنفزاوي؟ هذه حكايات قديمة على كل حال، وقراءاتي الخبيئة صارت موضة الآن، الجميع يتحدثون عنها وأولهم أنا. سري القديم انفضح واتضح.

انفضح واتضح وصار مثل غمزة بياع الزعتر، يراها الجميع.

بمرور السنوات خف تشنجي وتشنج الآخرين. المزحات والضحكات والتعليقات جاءت شيئاً فشيئاً. اهتماماتي بدأت تعلن عن نفسها أمام الآخرين، ولاسيما بعد زمن المفكر. صارت قراءاتي حكاية من حكايات المكتبة. من زملائي من يعدها لعبة، ومنهم من يتصورها انحرافاً، ومنهم من يتخيل الأكمة التي تخفي ما تخفي وراءها، يحللونها ويتهامسون فيما بينهم.

انفضحت العادة السرية وما عدت بحاجة إلى التستر وإخفاء الأغلفة. أفرح بكل جديد من كتبي المفضلة، وأعلن فرحتي على الملأ. بل صار هناك من الزملاء من يتطوع لزف البشرى إلي عندما يعثر على كتاب لا أعرفه.

بمرور السنوات صارت كتب الباه اهتماماً عادياً، أو شبه عادي. مثلي مثل الزميل الذي يبحث عن كتب الطبخ، والزميلة التي تهتم بالخرائط القديمة. لكلٍّ هوسه.

عرفت باكراً ما أريد وقررت أن ألعب لعبتي الخاصة. أدرجت هذا جزءاً من حياتي السرية التي لا يعرفها أحد غيري. لستُ ملزمة بتقديم تقارير عنها لأي إنسان. لا أريد من الآخرين موافقة، ولا صفحاً، ولا مشاركة. حياتي لي وحدي، وأسراري لي وحدي.

عرفت باكراً ما أريد ولعبت لعبة سهلة: لم أُخف يوماً ما أفكر به نظرياً، مهما كان صادماً للآخرين، بعيداً عما يعتبرونه الصراط الاجتماعي المستقيم. خبأت فقط إعلان التطبيقات العملية لأفكاري. هذه وحدها خطوة خطيرة في مجتمع لا يعرف إلا التقية وإعلانات الرضوخ. عندما قلت يوماً أمام الزميلات والزملاء، حول طاولة غداء، إن الزواج الأحادي مخالف الطبيعة، وإن كلمات مثل: الإخلاص، كذبةٌ كبيرة، وإن الرغبة الجنسية لا يمكن إلا أن تكون حرة، وإنَّ، وإنَّ.. نظروا إلي بارتياب اتهامي قبل أن تبدأ مناقشة حامية لم أشارك فيها. كنت أحب أن ألقي جُملاً من هذا النوع، وأتأمل رد فعل الآخرين.

تمرست بإخفاء حب الزوج عن العشاق، كما تعلمتُ من مرغريت دوراس، وعن الزوج حب العشاق، كما تتقن النساء.

تعلمتُ أن أكون الحارسة الوحيدة لأسراري. سري لا يمكن أن يُكشف لأنني لا أقوله لأحد. كل سر جاوز الاثنين شاع؟. لا. كل سر جاوزني شاع.

كان كابوسي المتكرر في لياليّ بسيناريو واحد لا يتغير: هناك جثة مخبوءة في مكان ما والقاتلة هي أنا. الجثة خبأتها بحرص وأعيش رعب اكتشافها. أحاول عبثاً أن أتحايل كي لا يراها الآخرون. ولكنهم سيرونها بين لحظة وأخرى. الكابوس هي هذه اللحظات التي تسبق اكتشاف الآخرين لجريمتي، لجثة كل أسراري المخبأة. كنت أفتح عينيّ في الظلام أرتعش رعباً. الجثة في الخزانة، يقول المثل الفرنسي، وأنا لم أذهب أبعد في التعبير عن حياتي المزدوجة. كان كل شيء واضحاً، وما كنت بحاجة إلى خبراء في تأويل الأحلام.

تعودت أن أصاب بفقدان الذاكرة الإرادي سلاحاً في حياتي مع الآخرين. أنسى ما أريد وأتذكر ما أريد. رياضة تمرنت عليها سنوات طويلة إلى أن تحولت إلى تصرف غريزي لا يحتاج إلى تفكير.

مرجعي هو أنا وما كان علي أن أبحث عن تصريح أرضي أو سماوي. ما كان علي أن أبحث عن فتوى شرعية تسمح لي بأن ألتصق برجالي في ساعات الحمى، كما في حكاية «السريع» التي صرعنا بها عن زميلته الصحافية في رحلة عمل مشتركة: جاءت تطرق باب غرفته في الفندق بعد منتصف الليل كي يكون أحد شاهدي زواج عاجل، لأن الأفريقي الذي أعجبها وأعجبته يرفض أن ينام معها إلا بالحلال. حكى «السريع» الحكاية للدنيا كلها، وكان الجميع ينقلونها عنه وكأنهم كانوا معه، تأكيداً لصحتها، شامتين هازئين. أذكر أنني حكيتها للمفكر وبدأنا نبحث عابثين في أسماء الناس حولنا عن شهود عدول لنا.

ماذا يمكن لنا أن نسمي هذا؟. زواج متعة؟. هل يمكن لي أن أعد كل رجل عرفت، بالمعنى التوراتي، زوج متعة؟.

زواج متعة؟. يبدو لي التناقض أساسياً بين المضاف والمضاف إليه. الأولى تغلق النفس والأفق، والثانية تفتحهما.

ربما كانت الفضيلة الوحيدة لزواج المتعة أنه نكاح إلى أجل معين، وترجمتها: زواج مؤقت. هذا يعفينا منذ البداية من أبدية الزواج النظرية على الأقل، ويخفف وطأته النفسية.

زواج المتعة للشيعة فقط؟. هذا لا يعني شيئاً لي. أنا لا أعرف

الطائفية ولا الانقسامات الدينية.

على كل حال، لا يمكن لي أن أعد رجالي العابرين أزواجَ متعة لأنني لم ألتزم حتى الآن بالأحكام الشرعية التي تقول: **إن الزواج المنقطع كالدائم يحتاج إلى عقد مشتمل على إيجاب وقبول لفظيين، ولا يكفي فيه فقط الرضا القلبي من الطرفين. إذن فعقد زواج المتعة عقد شرعي لا إشكال عليه بتمام شروطه. روي عن أبان بن تغلب أنه قال لأبي عبد الله: كيف يعقد على المرأة إذا خلي بها. قال: تقول: أتزوجك متعةً على كتاب الله وسنة نبيه، لا وارثة ولا موروثة، كذا وكذا يوماً. فإن قالت: نعم، فقد رضِيَت، فهي امرأتك وأنت أولى الناس بها.**

لا أعرف من أين أتى الأفريقي بحكاية الشاهدين؟. لا أجد لها أثراً في كتب الفقه. في الواقع، ما كان هذا يعنيني، وفي طقوسي السرية اكتفيت بالرغبة المعلنة جسدياً. من كل ما قرأت ودرست وتعلمت وعُلِّمت لم يبق في رأسي إلا كلمة الرغبة ولذة إشباعها.

٢

باب المفكر والتاريخ الشخصي

المفكر حكاية وحده.

قسمت حياتي قسمين: ق م، وب م: قبل المفكر وبعد المفكر.

كنت أصل إليه مبللة تماماً. يكفي أن أفكر فيه كي يفور دمي.

كان المفكر يقولها لي: أنت دائماً مهتاجة. لم أرك إلا محمومة. كنت أبتسم ولا يخطر لي أن أشرح له أنه سبب ارتفاع الحرارة في صدري. أرتمي عليه وتتأكد تحليلاته.

مرة في المترو كنت مستغرقة في استرجاع لقائي معه عندما تنبهت إلى الرجل الجالس في مواجهتي يحدق فيّ. ينظر إلي وكأنه يتفرج على فيلم بورنوغرافي. ينظر إليّ وكأنه يقرأ أفكاري. ألم يقل لي المفكر مرة، ونحن في المقهى وأنا أغالب شهوتي إليه في مكان عام: لم أعرف قبلك امرأة يعلن وجهها «انتصابها».

كنت أصل إليه مبللة وأول ما يفعله هو أن يمد إصبعه بين ساقي يتفقد «العسل» كما كان يسميه، يذوقه ويقبلني ويوغل عميقاً في فمي وأقول له: من الواضح أنك تطبق وصايا الرسول وتقتدي به: **لا يقع أحد منكم على أهله كما تقع البهيمة. وليكن بينكما رسول: القبلة والحديث. وعن عائشة: إن رسول الله كان إذا قبل الواحدة منا مص لسانها.**

كيف يمكنني ألا أكون بنت هذا التراث؟.

كيف يمكن ألا أذكر المفكر به؟.

لم يكن بحاجة إلى من يذكره بتراثه. هنا كان مسلماً بامتياز. وأنا أيضاً.

كنت أذهب إليه في الصباح قبل العمل. أصعد الدرج ركضاً. رنة الجرس الخفيفة ويفتح الباب فوراً وكأنه ينتظرني وراءه، نصفَ نائم. أرمي ملابسي وأدخل السرير ملتهبة. ألتصق به وأبدأ في تشممه. يرفع الغطاء وتمر يده على تفاصيلي ببطء. يتذوق عسلي بجدية راضية، وأتفقد بشفتي كل موضع من جسده. عيناي مفتوحتان وجسدي. بين تسرعي المتلهف وتمهله المتلذذ نجد إيقاعنا. يمر الوقت ولا نفترق. لا نتوقف. تحته، فوقه، إلى جانبه، منبطحة على بطني، راكعة على ركبتيّ. بين كل وضعية وأخرى يردد جملته: عندي فكرة. كانت أفكاره لا تنتهي، وأنا أحب الفلسفة. سميته: المفكر.

المفكر حكاية وحده.

قسمت حياتي قسمين: ق م، وب م: قبل المفكر وبعد المفكر.

قَبلَه كانت الجاهلية الأولى.

لا يعني هذا أنني كنت عذراء الروح أو الجسد. لا هذه ولا ذاك. لم أكن **مثل حواء التي سألت آدم عندما نام معها للمرة الأولى: ما هذا؟، قال: يسمونه النيك. قالت: أكثر لي منه فإنه طيب.**

أنا، مع تجاربي العملية وقراءاتي السرية والعلنية، كنت لا أعرف اللذة إلا معرفة شبه واعية. معرفة غامضة، كصورة قليلة الدقة، مهزوزة. جاء المفكر وانتظمت التفاصيل في أمكنتها. وضحت الخطوط والألوان وتركزت الإضاءة. لم أعد أمثل دوري، صرت أنا.

ق. م كانت الجاهلية الأولى؟.

ألتقي رجالاً، أصطفيهم ويصطفونني. أعرف ما أريد ولا يعنيني ماذا يريدون. صفحات ممتلئة بكلمات ينكتب بعضها فوق بعض. تتراكب من دون أن تمحي. وفي النهاية تنفرش أمامي مسودةً مشوشةً لا يحل رموزها أحد، ولا حتى أنا. صفحات مكتوبة بشيفرة سرية. جاء المفكر ليلقي الضوء وينظم الأساطير. لم يَجُبَّ ما قبله، لكنه جعلني أدخل في منطقة وعي جديدة لأقرأ سطري من جديد.

ب م، كان عصر النهضة الجنسية. نهضتي أنا. وكل ما عشته بعده مع رجال آخرين كان ملوناً بحكايتي معه.

هذا شيء لا علاقة له بالإشباع.

كنت قبله مكتفيةً شبعانةً مرتويةً وكان ذلك واضحاً علي. عندما

تشكت الصديقة أن بعض السحاقيات يغازلنها في تظاهرة فنية للنساء قلتُ مازحة: لم تغازلني أية امرأة حتى الآن، علق الجوّاب: رائحة الرجل تفوح منك على بعد كيلومترات وتريدين أن..

هو فهم ذلك أيضاً. كان يقول لي: اعتدتِ حتى الآن على شبع (الفاست فود)، معي تعيشين شيئاً آخر. كان محقاً؟.

ربما.

كان يقول لي: النساء نوعان: المرأة الخسة، والمرأة الجمرة. وأنا؟، أسأل بخبث. لا يرد بل يجذبني إلى صدره وأرتمي عليه ويقبل عيني وشفتي، وأمص ريقه، ويحسس على بطني وأفتح ساقيّ ويدخلني عميقاً ليحترق معي. أود أن أسأل: والرجال، كم نوعاً للرجال؟، وتنسيني لذتي كل الأسئلة.

إيقاعنا الواحد جاء منذ البداية. لم نحتج لتمرين أو دوزنة. يدهش هو ويعلن دهشته. لم يكن لدي الوقت كي أشاركه الإعلانات. كنت في حكايتي معه مكتملةً. أسكت. ألتصق بجسده وأغمر وجهي تحت إبطه وأتنفس رائحته ملء صدري.

فائدة الجماع الأول شهوة، والثاني لذة، والثالث شفاء.

كان يعانقني خلف الباب المغلق عناقَ الوداع ولا نستطيع فراقاً. يقبلني ويقبلني، ولا أستطيع فراقاً، وأركع أمامه وأنحني أفرك رأسي عليه وأريده أن يملأ فمي وأكاد أختنق لهفةً، وينتشر وأمتص شرهةً حتى آخر قطرة وأرفع عيني إليه لأرى وجهه المعذب باللذة يتشنج مرمياً إلى الوراء ويداه على شعري. الآن فقط يمكنني أن أعود إلى العالم مضيئةً بطعمه في فمي **ثقيلاً أبيضَ حلواً يتضوع**